من براعة البيان القرآني

د. غالب محمد الشاويش*

قال تعالى: ﴿ولا يسأل حميمٌ حميماً، يبصّرونهم يودُّ المجرمُ لو يفتدي من عذاب يومئذٍ ببَنيه، وصاحبتِهِ وأخيه، وفصيلته التي تؤويه، ومَنْ في الأرض جميعاً ثم ينْجيه﴾.. «سورة المعارج: الآيات: ١٠-١٤». في هذه الآيات، جاء ترتيب أقارب المجرم تنازلياً في سياق الفداء، ابتداء من الأبناء والصاحبة والأخ، وانتهاء بالفصيلة، ومَنْ في الأرض جميعاً. وهنا يرد سؤال: ما السّر البلاغي في تقديم الأقرب، ثم القريب، ثم عموم الناس في موضوع الفداء من العذاب؟

لعلّ السر في ذلك، يعود إلى طبيعة الموقف، فالمجرم قد عرف مَصَيرَه - بدون شك- أنه من أهل النار، وليس أمامه الآن، إلا أن يبحث عن وسيلة تنجيه من العذاب الأليم، فيأتيه التفكير، بأن يفدى نفسه بأقرب النّاس. إليه، ظنًا منه، أنه يملكهم، وأنه يستطيع أن يتصرف في شؤونهم وأمرهم، فيختار الأغلى من أقربائه وهم الأبناء، ثم إنه يشعر في قرارة نفسه، أن سلعة الفداء، ما زالت غالية، تحتاج إلى أكثر من الأبناء، فيقدم صاحبته فداء لنفسه، ثم إنه يشعر، أن سلعة الفداء، ما زالت غالية، وأنّ ما قدمه لا يكفي، فيضحي بأخيه - وهو العزيز المدلل في الدنيا - ثم ما زال يجد في نفسه، أن سلعة الفداء غاليه، إذ تحتاج إلى مزيد من البذل والعطاء، فيقدم عشيرته، التي كانت تناصره وتؤيده وتسانده في الدنيا، ثم أخيراً لم يبق أمامه من الأقرباء إلا « مَنْ في الأرض»، ومع هذا كلّه، فإنه لا ينجو من العذاب، لأنه لايمكن أن يتحقق له ذلك الفداء، فهي مجرد خواطر وأمنيات تدور في داخل نفسه، فعدْل الله - سبحانه وتعالى- يتناول الجميع، فلا ينوب أحد مكان أحد . قال تعالى: « وَمَنْ ضَلّ فإنّما يَضلُّ عليها، و لا تزرُ وازرة وِزْرَ أخْرى » سورة الإسراء: ١٥ ويقولَ تعالى: «وَكلُهمْ آتيهِ يوم القَيامةِ فَرْدا» سورة مريم، ٩٥.

ومن هنا يتبين أن أمنية المجرم - وهي الفداء لن تتحقق له أبدا. فهو يعيش على أمل خادع كالسراب، لأنه يظن أنه ما زال في عالم الدنيا، لا في عالم الآخرة فعالم الدنيا هو الذي يحصل فيه التضحية والفداء. التحليل البلاغي: قوله تعالى: « ولا يَسْألُ حَميمٌ حميماً».

الواو: عاطفة.

لقد جاء النفي بحرف « لا » دون « لن »، لأنّ الأول ينفي المستقبل والحال، بينما « لن » تأتي لنفي المستقبل، فحرف « لا» إذن، أشمل في النفي من حرف « لن »

فلو وجد حرف الجر (عن)، لأفاد أنّ رؤية الحميم لحميمه، تكون عن بعد، وليس عن قرب، وهذا لا يتناسق مع قوله تعالى: « يبَصّرَونهم». إنّ جملة «يبَصرونهم» لها وجهان:

الأول: أنها متعلقة، بما قبلها، أي في قوله تعالى: « ولا يسألُ حميمٌ حميماً»، وقد فصلت هذه الجملة، لأنها استئناف بياني، فكأنّ سائلا يسأل: لماذا لا يسأل حميمٌ حميماً؟ فهل عدم السؤال، راجع إلى عدم رؤية بعضهم بعضا؟ فيكون الجواب: « يبَصرونَهم » أي يبصر بعضهم بعضا، ولكن لانشغال كل حميم بنفسه - بسبب فظاعة الهول وشدته - لا يسأل عن حميمه، بالرغم من رؤيته له عن قرب. وما أشد وقع الألم على النفس، عندما يرى الحميم حميمه عن قرب ولكنه لا يكلمه، ولا يسأله عن أحواله، كما هو الشأن في الحياة الدنيا.

والثاني :أنّ جملة « يبصرونَهم »، متعلقة بما بعدها « يَوَدُّ المجرم لو يفتدي من عذاب يومئذ ببنيه... »، ومعنى ذلك، أنّ المجرمين، يبصرون المؤمنين في حالة ما يودّ المجرمُ أنْ يفدي نفسه بأعزّ ما يملك من الأبناء والصاحبة والإخوة. وما أصعب ذلك اليوم على المجرم - عندما يراه المؤمن- وهو في البلاء الشديد، والكرب الفظيع، لأنه يوازن بين ما هو فيه من ألم شديد، وحزن عميق، ومصير مظلم، وبين ما فيه المؤمن من رَخاء عميم، وعيش رغيد، وحال سعيد. فرؤية المؤمن للمجرم على هذه الحالة، تكون في نهاية الشدّة عليه، لأنه لا يريد لعدوه - المؤمن- أن يراه على هذه الحالة، لأن ذلك يؤلمه، ويوجعه، ويوهن من عزيمته، ويهدّ من قواه. وجاء الضمير مجموعاً في جملة « يبَصرونهم»، مع أنه راجع إلى الحميمين: الفاعل (حميم)، والمفعول به «حميماً»، والسّر في جمعه، يعود إلى ورود الفاعل والمفعول نكرتين. والنكرة في سياق النفي، تفيد العموم . فحملاً على معنى العموم، جاء الضمير مجموعاً في «يبصّرونهم». قوله تعالى: « يَودُّ المجرم لو يفتدى من عذاب يومئذ ببنيه، وصاحبته وأخيه، وفصيلته التي تؤويه، ومن في الأرض جميعًا ثم ينجيه....». جاء الفعل «يَودُّ» دون يحب، لأنّ فيه

زيـادة في المعنى، فالفعل يود بمعنى : كثير الحب مع التمني فالمجرم يحـب كثيراً، ويتمنى، أن يفتدي من العذاب بالأحب فالأحب، والأقرب فالأقرب، من أهله وعشـيرته، لشـدة ما يرى من الأهوال. وجاء الفعل «يَودُّ» بصيغة المضارع، لاستحضار الصورة للمجرم، سواء أكان في عالم الدنيا، عندما كان مجرما، أم في عالم الآخرة، عندما يريد الافتداء بنفسـه، بأعزّ الناس إليه، قبل أن يعرض على الحساب. وجملة «يود المجـرم»، يجوز أن تكون اسـتئنافية، وسـرها البلاغي، هو بيان أن كل مجرم، يشـتغل بنفسـه، حيث إنه يتمنى أن يفتدي بأقرب الناس إليه،وأعلقهـم بقلبه، ويجـوز أن، تكون حالا من ضميـر الفاعل، على اعتبار أنه هو المتمني، فالمراد : يود المجرم منهم والمجرم : بمعنى كثير الذنب . قال تعالى : «ولو ترى إذ المجرمون ناكسوا رؤوسهم عند ربهم» السجدة: ١٢. والتعريف في المجَرم، يكون للعَهد العلمي أو الحضوريّ، لأن معنى المجرم، معلوم ومعهود لدى السامع، ويكون كذلك التعريف للجنس لأن المقصود بالمجرم، جنـس المجرمـين، دون النظر للأفراد، فالتعريف في المجرم إذن، يكون للعهد العلمي، وللجنس، فهو يتضمن المعنيين معاً. والمجرم هو من حق عليه العذاب، ويشمل الكافر والمسلم العاصي الذي يعذبه. وجاء الحرف «لو» متناسـقاً مع الفعل «يَودٌّ» من جانبين: الأول : أنّ، حرف «لو» في أصله، حرف امتناع لامتناع، ولكنه فـي بعض الأحيان، يخرج عن أصل وضعـه إلى معنى التمني، وهذا الحـرف « لو»، يؤتى به في الـكلام، عندما يكون المتمنّى عزيزاً، بعيد المنال، صعب الوقوع.

وأمـا الفعل «يَـودُ»، ففيه معنى التمني كما مرّ بنا سـابقاً، وهكذا يكون التـلاؤم ما بين الفعل، والحرف من حيث شـمولهما على معنى التمنـي. الثانـي : أنّ هذا الحرف «لو»، يكثر وقوعـه بعد الفعل «ودٌ»، «يَـودٌ»، ومعنى وقوعه بكثرة، يدل على شـدة التناسـب ما بين الفعل والحرف.

وهـذا ملحوظ في كتـاب الله -عز وجل- يقول تعالـى : «وَدَّ كثير من أهْل الكتاب لو يردُونكم من بعد إيمانكم كفَّارا » البقرة: ١٠٩، وقال تعالـى : «ودَ الذيـن كفروا لو تغفلـون عن أسـلحتكم وأمتعتكم ....» النسـاء : ١٠٢، وقال تعالـى : ﴿يَوَدُ أحدهم لو يعمرُ ألفَ سـنه ....﴾ البقـرة : ٩٦. وقد ذهـب بعض علماء التـفسـير والنحو إلى أن «لو» تكـون مصدرية، إذ يصلح وقـوع (أنْ) المفتوحـة موضعهـــا، وأنّ أكثر وقوعها بعد الفعل « ودّ»، « يَودٌّ». قال تعالى : ﴿ يَود المجرمُ لو يفْتـدي من عذاب يومئذ ببنيـه﴾، «فلو» هنا مصدرية، وما بعدها في حكـم المفعول للفعل «يَوَدّ»، إذ يصبح المعنى : يود الافتداء من العذاب ببنيه... » إلخ. وسـواء جاء حرف «لو» للتمني أم جاء للمصدرية، فإنّ المعنى في كلا الحالين، مناسب لسياق الآية، فالآية تتحدث عن المجرم الـذي يرى العـذاب أمام ناظريه يوم الآخرة، فيتمنى بشـدة، أن يفدي نفسه بأعز الناس عنده: بنيه، وصاحبته، وأخيه ...... إلخ.

وهـذا التمنـي، إما أن يكـون حديث نفس جرى فـي خاطره، وإما أن يكـون كلاماً صدر منه، شـبيها بقوله تعالـى : « ويقولُ الكافر، يا ليتني كنت ترابا » سـورة عَـمّ : ٤٠. وهنا يفتضح أمره ، أمام أهله وذويه. ولا شـك أن التمني ب (لو)، يكون للشيء الذي يعز وقوعه، ويصعـب مناله، ومعنى ذلك أن مـا تمناه من فداء، لن يحصل عليه أبداً، فـوروده على العذاب أمر لابد منـه. وإذا كانت «لو» مصدرية، فإن مجـيء المعنى بطريق المصدر المؤول من «لو»، والفعل المضارع «يفتـدي»، يفيد أن فكرة الافتداء، والإصرار عليها، ما زالت عالقة في ذهـن المجرم، فهـو يعيش على أمل الافتداء مـن العذاب لآخر لحظة، شـأنه في ذلك، شأن مجرم موقوف في سـجن الدنيا، ينتظر الفرج، قبـل أن يصدر عليـه حكم المحكمة، فهـو يبحـث عن مخرج، لآخر لحظـه، لكي يخرج من السـجن، بل تجده يلح ويجتهـد في إيجاد واسـطة متنفذه، سـواء أكانت جاهـاً أو مالاً، أو مسـؤولاً كبيراً له قيمته الاعتبارية الرسـمية أو الشـعبية في المجتمـع، لكي يخلصه مما هو فيه.

والفداء: هـو ما يعطي عوضاً، لإنقاذ من تبعة، أو من مكاره، قد تلحق بالإنسـان. وجاء النظم القرآني بالملحق بجمع المذكر السّـالم «ببنيـه»، والاصـل « بنين»، فعندما أضيف إلـى الضمير « الهاء»، حذفت النون - دون جمع التكسير.(بأبنائه)،وذلك لأمرين: الأول : لأمر لفظي، فكلمة «بنيه» تتناسـب فاصلتها مع فواصل الآيات الأخر التـي جاءت بعدها وهي علـى الترتيب : « وأخيـه»، « تؤويه»، « ينجيـه». والثاني : لأمـر معنوي، فالجمع « بنيـه»، ملحق بجمع المذكر السالم، وهذا الجمع يفيد معنى القلة والكثرة بحسب السياق، وسياق الآية، يحتمل المعنيين.

فهنـاك من المجرمين، وعصاة المسـلمين، من عنـده « بنين»، قد يقـل عددهم عند بعضهـم، ويكثر بعضهم عند الآخر، لذا اختير هذا الجمع، ليستوفي المعنى : القليل والكثير. بينما لو قيل في غير القرآن « بأبنائه» على صيغـة جمـع التكسير « أفعال»، لأفاد معنى القلة، وهـذا مخالـف لمقصود (ببنيه)، كمـا مرّ بنا سـابقا. والدليل على إطلاق الأبناء على الذكور فقط، قوله تعالى في سياق نعَمه على بني إسـرائيل : « وإذ أنجيناكم من آل فرعون يسـومونكمَ سَوَء العذاب، يذبحّون أبناءكم، ويسْتحيون نساءكم وفي ذلكم بَلاء من ربكم عظيم «سـورة البقرة : ٤٩» فالمـراد من الأبناء، الرجال، ويسـمون أبناء على اعتبار ما كانوا، بدليل مقابلته بالنسـاء . قال القاضي أبومحمد - رحمه الله - « والصحيح من التأويل أن الأبناء هم الأطفال الذكور، والنسـاء هم الأطفال الإناث، وعبر عنهن باسـم النساء بالمآل » وقد جـاء بالتوراة، أن فرعون، قد أوصـى القوابل بقتل كل مولود ذكر، وهذا دليل على أنّ الأبنـاء هم الذكور من الأولاد دون الإناث. وكذلك تطلـق الأبناء على الذكور فـي قوله تعالى : ﴿تعالـوْا ندعُ أبناءَنا وأبناءَكم، ونساءَنا ونساءَكم، وأنفسنا وأنفسكم، ثم نبتهلْ فنجعلْ لعنة الله على الكاذبين﴾ آل عمران : ٦١. يقول أبو السعود : « اكتفى بذكر الأبناء عن ذكر البنات، لأنهم أعزُ منهـن» . وقال ابن عاشـور : « فيحتمـل أن المراد شـبانهم »، وجاء في تفسـير القرآن العظيم:

« أبناءَنا» الحسن والحسين « نساءَنا» فاطمة، « أنفسنا» رسول الله ﷺ وعلي بن أبي طالب ٠ وهذه ا أدلّة، تدل على أن المقصود بالأبناء هم الذكور. وجاءت كلمة « بنيه»، دون كلمة « أولاده»، لسر بلاغي، وذلك لأن كلمة الابن، لا تطلق إلا على الذكر، بينما كلمة « الولد»، تطلق على الجنسين : الذكر والأنثى ومعنى ذلك، أنّ الفداء بالذكر، يكون أغلى من الفداء بالأنثى، وهذا يتمشّى مع طبيعة البشر الذين يفضلون الذكر على الأنثى في القديم والحديث. هذا، وقد أشار القرآن الكريم إلى هذه الظاهرة في قوله تعالى : ﴿وإذا بشّر أحدهم بالأنثى، ظلّ وجهه مسْودًا وهو كظيم، يتوارى من القوم من سوء مابشّر به، أيمسكه على هون أم يدسُه في التراب ألاسَاءَ ما يحكمون﴾ سورة النحل: ٥٨، ٥٩، وقوله تعالى على لسان المشركين : ﴿ويجعلون لله البنات سبحانه، ولهم ما يشتهون﴾ سورة النحل : ٥٧، وكذلك قوله تعالى على لسان امرأة عمران عليها السلام : ﴿وليس الذّكر كالأنثى﴾ سورة آل عمران : ٣٦. وجمع ابن، أبناء وبنون، وسمي الابن ابناً،لكونه بناء للأب، فالأب هو الذي بناه، وجعله الله بناء في إيجاده ٠ وتطلق كلمة الابن، على الابن الصلبي، وابن الابن، وإطلاق الابن على ابن الابن، لا يستلزم إطلاق الولد على ابن الابن – إلا عرفا، لأن حكم لفظ الابن، مغاير لحكم لفظ الولد في أكثر المواقع، بدليل دخول الحفدة في المستأمن على أبنائه. قال تعالى : ﴿ وجعلَ لكم من أزواجكم بنينَ وحَفَدَةً﴾، النحل : ٧٢ والحفدة جمع حافد، حيث أطلق على ابن الابن، والحافد في اللغة : المسرع في الخدمة والعمل، لأن الحفيد يقوم بخدمة الجد عند الكبر بسبب ضعفه، فالحفدة زيادة في مسرة العائلة، لأنهم يقومون بخدمتها وإعانتها ٠وإذا كانت كلمة ابن، تلتقي في أصلها مع كلمة (بنى) من البناء، فإذن يكون على هذا الأساس، أن هناك تشابها ما بين الابن والبناء من ناحية :

أولا: البناء زينة وجمال، والبنون كذلك. قال تعالى : ﴿ المالُ والبنونَ زينةُ الحياة الدنيا﴾، الكهف /٦٤. فالبناء، جنس من المال، وهو مال صامت.

ثانياً: البناء فيه حفظ وستر لساكنيه، فهو يحفظهم من الحرارة، والبرودة والأمطار، ومن وحوش البر والأعداء، كما يكون ساتراً للإنسان حيث لا يطلع على ظروفه وأحواله أحد من الناس إلا الله عز وجل، وكذلك الأبناء، فهم يحافظون على آبائهم، ويكونون لهم ستراً في معيشتهم وحياتهم وظروفهم.

ثالثا : البناء فيه معنى القوة والمتانة والشدة، فهو يقف شامخاً أمام عاديات الزمان – وصروف الدهر، وكذلك الأبناء، فهم السواعد القوية، والعزائم الماضية الفتية، لآبائهم في السلم والحرب، والشدة والرّخاء، والضعف والقوة. وكلمة الابن، تستعار لكل شيّ صغير ٠فالشيخ الكبير يقول للشاب الأجنبي يا ابني ٠ كما أن الحكماء والعلماء والمدرسين والأساتذة، يقولون لطلبة العلم يا أبنائي. واستعمال الابن والولد في ابن الابن مجازاً، ولهذا يصح أن تقول عن ابن الابن : إنه ليس ابني، بل هو ابن ابني، وليس ولدي، بل هو ولد ابني ٠ بعد أن يتمنى المجرم – وهي مجرد أمنية – الفدية من بنيه، يتدرج بالفدية تنازليا إلى صاحبته. والصاحبة هي الزوجة، كما جاء في بعض كتب التفسير . ولكن لماذا عدل التعبير القرآني عن لفظة الزوج إلى الصاحبة ؟ فهل هما بمعنى واحد ؟، أم أنّ هناك نكتةً بلاغية، وسرّا بيانيا، اقتضى هذا اللفظ دون ذاك ؟ لاشك في أن استخدام كلمة « وصاحبته» في الآية القرآنية، لها بلاغتها في النظم القرآني، حيث تدل على معنى، لا تدل عليه كلمة «زوجة». يقول ابن فارس في مادة « صحب» « الصاد ، والحاء، والباء أصل واحد، يدل على مقارنة شيء ومقاربته، وكل شيء لاءم شيئاً فقد استصحبه، ومعنى ذلك، أن المقارنة تعني كثرة الملازمة والمداومة، ومما يؤيد ذلك، ما جاء في معنى الصاحب، حيث يعني الملازم حسًا أي : « مصاحبته بالبدن»، أو معنى، كالاهتمام بالصاحب والعناية به في حالة غيابه، حيث لا يغيب شخصه عن القلب والعقل والذهن والعين.

ولذا جاء النظم القرآني بذكر « الزوجة» بوصف الصاحبة، وذلك للدلالة على الملازمة والقرب وطول اللبث – لا بوصف الزوج، لأن المرأة قد تكون سيئة العشرة لزوجها، فعندئذ لا يكون فراره منها بسبب شدة الهول، وإنما بسبب عدم حسن العشرة، ومن هنا جاء الوصف بالصاحبة دون الزوجة ، وهناك وجه آخر، له سّره البلاغي، ألا وهو أن كلمة «صاحبة»، أعم من كلمة زوجة، فالصاحبة تكون للمؤمن، كما تكون للكافر، فالمؤمن يريد الفدية من صاحبته، وكذلك الكافر، بينما الوصف « بالزوجة» في أسلوب القرآن الكريم يطلق إذا كانت الزوجة على دين زوجها، وكان لا يوجد بينهما ما يعكّر صفو الحياة الزوجية. أما إذا حدث ما يعكّر الحياة الزوجية من اختلاف دين أحدهما عن الآخر، أو حدث تفريق بينهما بطلاق أو موت، أو حصل نزاع بين الزوجين، أو ابتلي أحدهما أو كلاهما بعقم، أو وقعت خيانة في العلاقة الزوجية، ففي هذه الحالة، يستخدم النظم القرآني كلمة (امرأة) لازوجة ٠ومن هنا جاء السر البلاغي بمجيء الوصف بالصاحبة دون الزوجة في سياق الآية الكريمة « وصاحبته وبنيه» لأنّ « الصاحبة» تعمّ المؤمن وغير المؤمن، بينما الوصف بالزوجة، يخصّ المسلم، ولّما كانت الفدية من شدة الهول، يطول المؤمن والكافر، جاء الوصف « بالصاحبة»، لكي يتناسب مع مقصود البيان القرآني، ولو قيل في غير القرآن:«وزوجته»، لكانت الفدية خاصة بالمؤمن، حيث يطلب الفداء من زوجته، وأما الكافر فلا ذكر لطلب الفداء من صاحبته، وهذا خلاف مقصود النظم القرآني.

وأما تقديم « الصاحبة» على الأبناء، فهو بسبب السبق في الزمان، إذ وجود البنين، مترتب على وجود الصاحبة، فكانت بالتقديم أولى٠

وهناك أيضاً ملحظ لفظي في هذا التقديم، وهو رعاية الفاصلة، فلو قيل في غير القرآن: « وبنيه وصاحبته»، لاختلّ الإيقاع، وذهب جمال الموسيقى.

قوله تعالى : ﴿ وأخيه﴾. جاء الأخ في المرتبة الثالثة من الفداء،

وأصله أخو" ويجمع على إخوة، وأخْوة،وأُخوَّة وإخوان جاء في لسان العرب ما نصه : « وأكثر ما يستعمل الإخوان في الأصدقاء، والإخوة في الولادة» قال أبو حاتم : « قال أهل البصرة أجمعون : الإخوة في النسب، والإخوان في الصداقة» أما قولهم « الإخوة» في الولادة أو في النسب، يبطله قوله تعالى : « إنما المؤمنون إخوة، فأصلحوا بين أخويكم، واتقوا الله لعلكم ترحمون» سورة الحجرات : آية : ١٠. فكلمة «إخوة» لا تعني إخوة النسب، أو إخوة الولادة في الآية فحسب، بل تشمل أخوة الدين، وإخوة الإسلام. وجمع «الإخوة»، يتناول الذكور والإناث تغليبا، يدل على ذلك قوله تعالى : «وإنْ كانوا إخوةً رجالا ونساءً» سورة النساء : ١٧٦. والأخ : هو من جمعك وإياه في الولادة من الأبوين : أي من الأب والأم، أو من جمعك وإياه من صلب واحد، وهو الأخ من الأب، أو من جمعك وإياه من بطن واحد، وهو الأخ لأم، أو من جمعك وإياه في الرّضاع والإخوة إذا كانوا من الأبوين (الأب والأم)، يطلق عليهم : «بنو أعيان».

وأخيراً يحب المجرم بعد كل ما قدمه من الأقرباء السابقين فداءً لنفسه، أن يفتدي بمن في الأرض جميعا، وهذه هي المرتبة الخامسة من الفداء. جاء اسم الموصول « مَنْ» المشترك الذي يصلح للمفرد والمثنى والجمع، كما يصلح للمذكر والمؤنث بحسب السياق . واسم الموصول (مَنْ)، يشمل جميع الخلق في الأرض، فيشمل الثقلين : الإنس والجن، أو الخلائق الشاملة لهم ولغيرهم فاسم الموصول في هذا السياق، يشمل العاقل وغير العاقل، لأن الأرض فيها العقلاء، وغير العقلاء، ولكن هنا غلّب العاقل على غيره. فالأرض فيها الحيوانات على اختلاف أصنافها، والمعادن على اختلاف أنواعها، والطيور على اختلاف أشكالها. وانظر إلى كلمة الأرض في هذا السياق، فالمجرم مازال في تصوره القديم، ووهمه الخادع، فهل هناك أرض ؟ وهل تبقى الأرض بمن فيها على ما كانت عليه؟قال تعالى : « يوم تبدَّل الأرضُ غيرَ الأرض» سورة إبراهيم : آيه :٤٨.وقال تعالى : « كلا إذا دكت الأرض دكّا دكّا» الفجر: آية : ٢١. وقال تعالى : ﴿إذا زلزلت الأرض زلزالها﴾ الزلزلة : آيه ١. وقال تعالى : ﴿وحملت الأرض والجبال فدكّتا دكّة واحدة﴾ الحاقة / آية :١٤ وجاء اللفظ « جميعاً» الدال على الحال بمعنى مجتمعين، والمعنى فهو حال في اللفظ، تأكيد في المعنى والمعنى أن المجرم، يتمنى الفداء بشدة منْ مَنْ في الأرض جميعا مجتمعين لا متفرقين، أي : من جميع الخلق في الأرض العاقل وغير العاقل. ويجوز أن تكون «جميعا» توكيدًا للاسم الموصول «مَنْ»، وسر هذا التوكيد، هو أنه يفيد التعميم الحقيقي، وإزالة الاحتمال عن الشمول الكامل والمعنى : أن المجرم، يتمنى الفدية، من كل فرد من أفراد الخلق، دون استثناء، على سبيل الشمول الحقيقي، لا على سبيل المبالغة.

وهنا سر بلاغي في عدول البيان القرآني عن العطف بالفاء إلى العطف بالحرف « ثم» في قوله تعالى : ﴿ ثم ينجيه﴾ دون «فينجيه»، مع أن الأكثر في مثله، جاء العطف بالفاء كقولة تعالى : ﴿ودّوا لو تكفرون كما كفروا فتكونون سواء﴾. النساء: آيه:٨٩. وقوله تعالى : ﴿وَدّوا لو تدهن فيدْهنون﴾ القلم / آية: ٩. لاشك في أن العطف بـ (ثم) يدل على شدة اهتمام المجرم بالنجاة بأي وسيلة، فالحرف (ثّم)، مكّون من ثلاثة أحرف، وهذا الحرف، يدلّ على التراخي الرتبي، فالزمن فيه ممتد على العكس من حرف العطف الفاء، فالزمن فيه قصير، فكم يستغرق حرف الفاء من الزمن عند النطق به؟ لاشك أنه وقت يسير، وهذا لا يتناسب مع طبيعة الموقف الذي يعاني منه المجرم، فهو يريد النجاة من العذاب، لأنها هي الغاية عنده، فالحرف (ثم) فيه معنى الترتيب، والتمهل، والإبطاء، فالمجرم يريد أن يطول الزمن قبل أن يقذف في النار، لعله يجد وسيلة من الوسائل لكي ينجو، فكلما طال الزمن، كان في صالح المجرم كالموقوف في السجن، يحاول الخلاص بأي وسيلة قبل أن يصدر عليه حكم المحكمة، فيثبت عليه الجرم، ثم يحكم فيدخل السجن.، فالحرف (ثم) هو المعبر عن نفسيه المجرم في هذا الموقف العظيم. أضف إلى ذلك، أن العطف ب (ثم) يفيد استبعاد الإنجاء فالمجرم يتمنى لو كان جميع ما ذكر من الأقرباء وغير الأقرباء، في متناول يده، لكي يبذلهم فداء لنفسه، ولكن هيهات له هيهات !!. وهنا يرد سؤال مفاده: ما السر في جمع «بنيه»، وإفراد « صاحبته» و«أخيه»؟ لعلّ السر في ذلك - والله أعلم -، يعود إلى سببين :

الأول : لفظي، فاللفظان « صاحبته»، و(أخيه» يتناسبان مع الفاصلة التي قبلها « ببنيه»، كما يتناسقان مع الفاصلتين اللتين بعده وهما: « تؤويه»، « ينجيه»، فلو جمع اللفظان : « صاحبته»، و« أخيه» لا ختلت فواصل الآيات.

الثاني : معنوي فاللفظ «ببنيه » جمع، يفيد معنى القلة والكثرة، وقد مرّ بنا سابقا، أنّ هذا الجمع، ملحق بجمع المذكر السّالم، فجاء الجمع، ليشمل من لديه القليل أو الكثير من الأبناء، لذا جاءت الكلمة «ببنيه» في موضعها المناسب، حيث تعبر عن المعنى المقصود على أكمل وجه. ثم عطف المفرد «وصاحبته» على الجمع، والصاحبة هي الزوجة، وقد مرّ بنا سابقا، الفرق بين الصاحبة والزوجة.

ومن الجدير بالذكر أن بعض المجرمين - ومنهم عصاة المسلمين- ممن لديهم صاحبة أو أكثر، فإن كان له أكثر من صاحبة، فهو يريد الفداء بالصاحبة الأغلى منهن. لذا جاء ذكر الصاحبة بالمفرد- والله أعلم- دون الجمع، لهذا الهدف وهو الفداء بالأغلى، سواء أكانت له صاحبة واحدة أم أكثر . وكذلك جاء لفظ «الأخ» بالمفرد دون الجمع، ومن المعلوم أن بعض المجرمين والعصاة من المسلمين، ممن لديهم أخ واحد أو أكثر. فإذا كان لديه أكثر من «أخ»، فهو يريد الفداء بالأغلى منهم، وإذا كان لديه «أخ» واحد، فهو يريد الفدية منه، وهكذا يتخيرّ الأغلى من الصاحبة، والأغلى من الإخوة في سبيل الوصول إلى هدفه، وهو النجاة من العذاب العظيم، لذا جاء التعبير بالمفرد دون الجمع.

*جامعة الحسين بن طلال ـ معان - الأردن ■